رأس المال والربا

يرى علماء الاقتصاد ان مصادر الثروة ثلاثة . الارض مع ما يتنفع به الانسان من القوى الطبيعية . والعمل . ورأس المال . ورأس مال الامة هو نوع من انواع ثروتها معدّ للتثمير وانماء الثروة نفسها

وقد اختلف الكتّاب الاقتصاديون في ما يشتمل عليه رأس المال فزعم بعضهم ان الاقليم يُعَدّ قسمًا منهُ بقدر ما يحسن مصادر الثروة . الاّ ان المستر ووكر الاقتصادي الاميركي يقول ان انبات الحرارة وانبعاث الرطوبة بفعل الطبيعة المجاني يحسّن مصادر الثروة ولكنهُ لا يُعَدّ رأس مال . وقانون القضاء الذي يؤيد العدالة ونظام السياسة الذي يؤيد السلم هما خير عضد لمصادر الثروة بل هما يقدّران الامة على الاثراء اكثر مما يفعل رأس المال ومع ذلك لا يعدّان رأس مال . وها نحن ناقلون في هذه الرسالة اقوال هذا العالم الاقتصادي في رأس المال والربا برمتها

رأس المال

تصوّر قبيلة همجية مستقلة عن سائر الامم تقطن ساحلاً وتعيش عيشة سادجة على سمك البحر الذي تصطادهُ واقفة على الصخور المشرفة على البحر . فمتى كان السمك وفيرًا كانت تلك القبيلة في بحبوحة من الرزق فتعيش بيطر ومتى قلّ السمك اعسر حالها وربما انتابتها مجاعة مهلكة . فهي اذًا تارة في يسر وطورًا في عسر . ثم هب ان احد اولئك الصيادين عضّهُ ناب الجوع فصمّم على ان يغتنم فرصة اليسر لمدافعة العسر قبل وقوعه فكان يدّخر ما يفضل عنهُ من السمك في حين الاقبال الى حين الاعجال قانعًا من الغنى بالكفاف ومتكفّفًا عن النهم والشراهة مهما كان صيدهُ وفيرًا . وفي برهة قصيرة صار عندهُ من السمك المجفّف ما يغذيه عدة ايام

ولما دنا فصل الاعجال واخذ السمك يقلّ حمل هذا الصيّاد سمكهُ المجفف وصعد به الى الجبل حيث وجد الاشجار غضّة فجعل يقطعها بحجارة الصوان الحادّة وحاول ان ينشئ منها زورقًا صغيرًا . فكان يواظب على عمله هذا وهو يقتات مما وفّرهُ من الطعام حين كان رفاقهُ يجاهدون اشد الجهاد في صيد السمك القليل لحفظ حياتهم . فما انتهى فصل الاعجال حتى نزل من الجبل وعلى منكبيه زورق خفيف يكفي لان يبعد به عن الشاطئ ميلين او ثلاثة في حين ان رفاقهُ لا يقدرون ان يوغلوا في البحر مثلهُ وجعل يطوف به في الماء وصار يصطاد في يوم ما لا يصطادهُ واحدٌ من رفاقه في اسبوع

فالزورق رأس مال والصياد متموّل . وهو مخير بين ثلاثة امور : — اما ان يطوف العباب كل يوم جامعاً من السمك ما يكفي عائلة كبيرة فيتزوّج ويعول اولادهُ واذا فضل عنهُ وعن عائلتهِ شيءٌ من السمك استأجر بهِ بعض رفاقهِ ليبنوا كوخاً لسكناهُ ونساءهم ليحكن لهُ الحصر او الشعر بُسُطاً واولادهم ليستقوا لهُ الماء . او انهُ يؤجر الزورق لشخص آخر يطوف بهِ الماء ويصطاد السمك ويقدم لهُ كفافهُ من الطعام فيعيش براحة عيش البلداء . او يؤجر الزورق لآخر ويتقاضى منهُ كفافهُ من السمك ويعود ثانيةً الى الجبل ليبني زوارق أخرى . ثم يعود الى الشاطئ بزورق يؤجرهُ لآخر ويتقاضى نصيباً من صيدهِ فيصبح غنياً يعول اسرة كبيرةً ويعيش عيشة الرخاء . وهذا الامر الاخير هو ارجح ما يجنح اليهِ الصياد المشار اليهِ لانهُ يتعب ويتقشف في اول الامر ليستريح ويتنعم في الآخر

ولا يخفى ان معرفة هذا الصياد ببناء الزوارق وخبرتهُ تزدادان شيئاً فشيئاً حتى يصير يصنع الزورق بتعب اقل ووقت اقصر لانهُ يكون قد جال في الغابة مراراً وعرف افضل الاشجار لبناء الزوارق ومهر في قطعها فلا يضيع وقتهُ في عمل عقيم . وزد على ذلك انهُ متى كثرت زوارقهُ المؤجرة ووفرت ارباحهُ منها يستأجر بما يفضل عنهُ من الطعام آخرين يشتغلون معهُ الاشغال الشاقة في بناء الزوارق كقطع الاشجار ونقلها وهو يشتغل بقية الاشغال الدقيقة غير الشاقة

على ان نجاح صانع الزوارق لا يلبث ان يهدَّد . نعم انهُ احتكر هذه الصناعة برهة وكانت ارباحها منحصرة فيهِ ولكن نجاحهُ نبَّه رفاقهُ فجعلوا يحذون حذوهُ الواحد بعد الآخر . ومما لا بدَّ منهُ ان يوفر كل منهم قسماً من صيدهِ في زمن الاقبال ليقتات بهِ في زمن الاحجال حين يحاول أن يبني اول زورق كما كان يفعل الصيَّاد الاول . ومعنى ذلك ان لا بدَّ من جمع الجانب الاول من رأس المال ولو بالتقتير في اول الامر . على ان صنع الزوارق يصبح حينئذٍ اسهل من صنع الزورق الذي بناهُ الصياد الاول . وذلك اولاً لان السمك يصير وفيراً بسبب وفرة الزوارق التي سهلت صيدهُ حتى يفضل منهُ شيءٌ عند كل واحد من القبيلة . وثانياً لان مثال الزورق موجود فيسهل على كل احد ان يعمل مثلهُ من غير ان يضيع وقتاً ويبذل قوةً في التجربة والامتحان . وثالثاً ان تأكد النجاح وقرب حصولهِ يشجعان العامل على العمل . ويندر ان يتردد واحد من عشرة خائفاً ان يحبط عملهُ . وزد على ذلك أن الاذكياء الذين كانوا يساعدون باني الزورق الاول وكانوا يرون بعيونهم كيف كان يعمل وتعلموا صناعتهُ يفترقون عنهُ الواحد بعد الآخر ويستقل كل منهم بصناعة الزوارق

ولا يكاد يتوفر عدد الزوارق عند القبيلة حتى يطرأ على بعضها من الانواء ما يحطمهُ

ويُرى يوماً بعد آخر بعض الناس مطروحاً على الشاطىء وقد قذفتهُ الامواج من جوف الغمر ثم يقضي نظام الاجتماع على صانعي الزوارق ان يعولوا ارامل الغرق وايتامهم . وبعد ذلك يأخذ الصناع يدققون في صنع زوارقهم ويصلحون مواضع العيب فيها قبل ان يخوضوا بها اللجج . والقليلون منهم تكسد زوارقهم لطمعهم بالربح من وراء قلة الاعتناء فينبذون من بين صانعي الزوارق

ويجب ان يلاحظ ان مكاسب صناعة الزوارق تقل بسرعة فالزورق الاول يفي بنفقة صنعهِ في اسابيع قليلة ولكن الزوارق الاخيرة لا تفي نفقات صنعها الاَّ بضعة اشهر ومع ذلك يكون صانع الزوارق اسعد وايسر حالاً ممن يستأجرها او يشتريها ليصطاد بها . وكذلك يكون مستأجرو الزوارق او شاروها اسعد حالاً ممن يصطادون على الطريقة القديمة اي على الصخور المشرفة على البحر

ولنفرض الآن ان الزوارق وفرت جدًّا حتى صار لكل اربعة رجال زورق فحينئذٍ لا بدَّ ان تتخذ احدى خطتين كل منهما نافع لمستقبل الجماعة

الأُولى ان يستمر ازدياد الزوارق حتى يصير لكل رجل زورق يصطاد بهِ من السمك في ساعتين او ثلاث ساعات ما يكفيهِ هو واهل بيتهِ النهار كلهُ وفما يهمهُ ان يكون الوقت صيفًا او شتاء والفصل مقبلاً او محلاً . فان نشوء رأس المال ونموَّهُ افضى الى هذهِ النتيجة اي الى تلاقي الجماعة بتاتًا . واما بقية الوقت اي مدة الفراغ من الصيد فيقضيها افراد الجماعة في اللعب والكسل والبطالة

الثانية ان يتوقف صنع الزوارق حين يصير المصنوع كافيًا لاصطياد القدر اللازم من السمك لكل القبيلة بواسطة ربع رجالها فقط اذا اشتغلوا من الصباح الى المساء . واما بقية الرجال الذين لكسلهم او لتطوحهم في المفاسد تجزوا عن ان يبتنوا او يقتنوا الزوارق والذين رزئوا في زوارقهم فتكسَّرت واياًسهم الفشل والذين لضعفهم الطبيعي او جبنهم لم يقدروا ان يحترفوا حرفة الصيد — كل هؤلاء يجتمعون الى الاسترزاق من خدمة الصيادين الذين يعدُّون حينئذٍ اغنياء القبيلة . ولا بد ان يلازم بعض صانعي الزوارق هذه الصناعة لكي يصنعوا بدل ما ينقد ويصلحوا ما تعطل منها وحينذاك يتحوَّل قسم كبير منهم عن صنع الزوارق الى بناء المنازل لانهُ ما من احد من الموسرين يرتضي ان يبقى آويًا الكوخ الحقير الذي كان يأوي اليهِ اسلافهُ . وفي هذه الحالة يتعدَّد الخدم والحشم . ثم تنشأ صناعة صياغة الحلي والزينة ونحو ذلك لان التحلي اول ما يجتنح اليهِ المجتمع في بدء تحضرهم اذا ايسروا

وبعد استيفاء ما تقدم تشتهي النفس رغائب جديدة تنبه افراد القبيلة الى النباتات ذات الازهار التي يرونها في الحقول فيزرعونها في حدائق حول منازلهم لاجل الزينة ويتفننون في زرعها حتى تتولد منها نباتات جديدة . ويعنون بزرع البقول التي يستطيبون طعمها وحينئذٍ يبتدئ طعامهم بتنوّع بعد ان كان السمك وحدهُ حتى اذا استطاب بعضهم هذا الطعام المتنوّع عكفوا على حرث الاراضي وزرعها واستغلال الحبوب والبقول منها

ونشوء هذا الغذاء الثاني يكون بدء طور جديد في حياة القبيلة . فلا بد حينئذٍ ان تتنوع الاغذية تنوعاً متعدداً جدًّا حتى لاتقف انواعها عند حد . ومن ثم يبتدئ الدور الزراعي ويشعر بضرورة رأس المال في صور متعددة . ويلي تنوّع الطعام تنوّع اللباس فينشأ الدور الصناعي وتظهر في القبيلة القوة التي كانت كامنة فيها قبلاً يوم كانت مقتصرة على صيد السمك غذاء لها

وعند كل خطوة من خطى نجاحها يجري راس المال على ناموس فقد نشأ اولاً من مجرد التوفير فكان بدلاً من تحمل المشاق والتقشف في المعيشة او ثمنًا لها وكانت الموفرات تجمع ببطء ومشقة . وكان لاجزاء رأس المال الاولى "قوة المقايضة" بقدر ما كان يقاسى من المشقة في تحصيلها . والمراد بقوة المقايضة هذه ان يستأجر المموّل بالمال (سمكاً كان او نقوداً) عاملاً لا مال عندهُ ليعمل لهُ عملاً يساوي ذلك المال او ما يعادلهُ من المشقة والتقشف الذين قوسيا في تحصيله . فكأنّ عملاً قريش بعمل آخر يختلف عنهُ بالنوع بغية استزادة المال . فالصياد يوفر من صيده ليشتري بالموفر زورقاً يزيد صيدهُ . والزورق والسهم والحربة والمعول الخ مهما كانت توفي اثمانها في برهة قصيرة . وهكذا ينمو رأس المال على التوالي وتقل التضحية في سبيل توفيره شيئاً فشيئاً فيقل ربحهُ تدريجًا حتى اذا كثرت المباني والمعامل في البلاد الراقية لا تعود ترد لدويها اكلافها الاّ بعد عشر سنوات الى عشرين سنة

فبعد ان كانت قوة العمل مقيدة باعداد الطعام البسيط للقبيلة تفكّ من قيودها بواسطة رأس المال ويتسع نطاقها وينقسم اهل القبيلة الى فريقين فريق يستخدم قوة العمل (التي حلّ رأس المال قيودها) في انماء الثروة بطرق العمل المختلفة . وفريق يقنع باسلوب معيشته الاول على حال اسهل من قبل ويقضي وقت العطلة من العمل بالراحة والكسل

اتضحت وظيفة رأس المال في ما سبق من الشرح عن اصله ومصدره . وظهر لنا انهُ قسم من الثروة يستخدم في استنباط انواع جديدة منها . وهو يظهر في ثلاث صور : —

الصورة الأولى مؤونة العامل من طعام وكساء وما اشبه مما يستعمله في اثناء جمع الثروة. ولا بدَّ من توفير هذه المؤونة في زمن الاقبال حين يربو الدخل على الخرج . وفي اوائل عهد التحضر او اواخر الهمجية كعهد الصيادين مثلاً يُستصعب توفير قسم من السمك المصطاد في الفصل الواحد ليحفظ مؤونة للفصل التالي . واذ ترى القبيلة بعين الحكمة انهُ لا بدَّ من التوفير والذخر من فصل الى فصل او من عام الى عام فاذا لم يكن الرزق موفوراً لها في موطنها ترحل الى موطن آخر اوفر رزقاً بحيث تستخرج من الرزق ما يربو على نفقتها وتدَّخر منهُ وذلك بمواظبتها على العمل بنظام وتدبُّر بحيث لا تضيع فرصة وان كانت في غنى

ولا يخفى ان خزن المؤونة لعام واحد هو منتهى ما وصل اليهِ ارتقاء العمران البشري . وامم كثيرة تقتصر عنهُ كأهل الهند مثلاً فانهم لا يؤملون في عام الاقبال ان يدَّخروا مؤونة تكفيهم في العام التالي . ولذلك ترى انهُ في عام الاضحال الذي ينتاب البلاد كل خمس سنوات او ست تجرف المجاعة او الحميات الناتجة عن قلة الغذاء ملايين من الفقراء

الصورة الثانية العدد والادوات وسائر الآلات التي يستخرج بها العامل الثروة. فالسكين والسهم والحربة والشبكة ونحو ذلك هي ادوات العمل في اواخر عهد الهمجية وقد حصل عليها ذووها بعد توفير قسم من الزاد لكي يُنفق اثناء صنعها كما فعل صانع الزورق الاول ولهذا اعتبرت مالاً . وكذلك المعول والمحراث والمغزل والكور ادوات العمل في اوائل الحضارة. والنول والمطبعة والسكك الحديدية والسفن الى الخ آلات العصر الاخير . وكل هذه صور لرأس المال وبالتالي نوع من الثروة

الصورة الثالثة هي ما سوى مؤونة العامل وآلات العمل مما لا عدَّ لهُ . فطعم الصنارة وبذار الزراعة هما من النوع الثالث من صور المال في العهود الاولى . والاثاث والرياش والحلي وغير ذلك من مواد القصف والبذخ هي من هذا النوع ايضاً

وترد هذه الصور الثلاث التي يظهر بها رأس المال الى صورة واحدة وهي "قوام المعيشة" من طعام وكساء ومأوى ووقود . وهذه الصور الثلاث التي تمثل "قوام المعيشة" ترد الى صورة واحدة ايضاً وهي "الطعام" . فالآلات الاولى البسيطة التي استعملها المسنج لأول عهد تحضرهم كانت بدلاً من "قوام المعيشة" الذي كان يتمتع بهِ العاملون حين يصنعون تلك الآلات . اي انهم كانوا يعيشون من تعب غيرهم اومن تعبهم السابق لكي يتفرغوا وقتهم في عمل تلك الآلات فتكون تلك الآلات بدلاً من "قوام المعيشة" . وكذلك المواد الاولى كالحلي والبذار كانت قوام المعيشة الذي كان يتمتع بهِ صانعوها

ثم ان كل الصور التي يظهر بها "قوام المعيشة" اي الطعام والغذاء والكساء والمأوى والوقود ترد الى صورة واحدة اصلية وهي الطعام . فثوب العامل مثلاً هو بديل الغذاء الذي تغذّاهُ حين كان يجمع النسالة ويغزلها ويحوكها . والكوخ هو بديل الطعام الذي كان يأكلهُ مدة بنائهِ . والوقود بديل الطعام الذي كان يأكلهُ حين كان يجمع ذلك الوقود من الحراج

وقبل ان يجنح الانسان الى الكساء والاواء والاستدفاء كان يستغني عن هذه بالطعام وحدهُ ولكنهُ لمَّا شعر ان الاستدفاء يحفظ قسماً كبيراً من حرارة جسمهِ فيغنيهِ عن قسم من الطعام سعى اليهِ لانهُ اسهل من السعي الى الطعام فالوقود اوفر من الغذاء . والكساء الذي يتعب في صنعهِ اسبوعاً يكفيهِ عاماً . والمأوى الذي يشغلهُ شهراً يكفيهِ عمراً . وكل هذه تقيهِ البرد وتحفظ حرارة جسمهِ وبالتالي تغنيهِ عن بعض الطعام

انتهى الكلام عن رأس المال وسيأتي الكلام عن الربا في مقالة تالية نقولا حداد

ادراك الحيوان

من اشهر المسائل التي اشتغل علماء الفلسفة العقلية بحلها وجرّبوا التجارب الكثيرة فيها ما اذا كان للحيوان الاعجم عقل يتكر بهِ ويستنتج . وفي طليعة هؤلاء العلماء ادورد ثورندبك الاميركي وقد قصر مباحثهُ في هذا السبيل على المشاهدة والامتحان واجتنب الاطلاق والتعميم على النوع من مشاهدة احد افرادهِ وجرَّب التجارب الكثيرة ونظم وقائع كل تجربة على حدة تنظيماً حسناً حاصراً تجاربهُ في حيوانات ربَّاها فعرف تاريخ حياتها واختار القطط والكلاب والدجاج وجعل مدار بحثهِ على ثلاثة امور وهي اولاً ماذا تفعل الحيوانات اذا وضعت تحت المراقبة . وثانياً كيف تفعلهُ . وثالثاً بماذا تشعر وفي تفعلهُ

اما تجاربهُ فمنها انهُ كان يأتي باحد هذه الحيوانات ويجوّعهُ ٢٤ ساعة مثلاً ثم يضعهُ في قفص ويضع لهُ الطعام خارج القفص بحيث يراهُ وكان باب القفص يفتح ويغلق بسقاطة او زرّ او خيط او بها كلها معاً فكان لا بدَّ للحيوان من معالجتها قبل خروجهِ من قفصهِ . اما الدجاج فكان يتساهل معها فبدلاً من ان يضع الدجاجة في قفص لهُ باب يفتح ويغلق كان يضعها في مكان محصور ويقيم حولها الحواجز . على ان المبدأ في الحالين واحد اي انهُ لا بدَّ للحيوان فيهما كليهما ان يؤلف في مخيلتهِ سلسلة افكار توصل الصور التي تنطبع فيها بما يراهُ